المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٦٩

آيات في خلقه

١ — للحياة سر كبير هو من آيات الخلق

في الأساطير القديمة التي تتناقلها الأمم خلفاً عن سلف ، وفي قصص الميثولوجيا التي تتوارثها الأجيال ، حكايات عن أشخاص أو روّاد أو أبطال وهبتهم الطبيعة قدرة خاصّة على فهم منطق الحيوان ، الذي يظن الكثيرون أنه أبكم لا يقدر على شيء .

غير أنه من خطل القول ، ومن الاعتداء الصريح على القوة التي تدبر الأشياء ، أن يقال بأن الحيوانات التي تقع من نظام الطبقات الحيّة في مرتبة تعلو مرتبة الأسماك الهلامية ، عاجزة عن أن تتفاهم بالأصوات الشفوية التي تخرجها . على أن بعض الحيوانات العليا فيها من الذكاء والقدرة على الفهم ما حمل « ألفونس كار » على أن يقول مرة إن كلبه يستطيع أن يفعل كل شيء ما عدا الكلام . غير أنه حمد الله على أن كلبه عاجز عن ذلك ، وإلاّ لأزعجه بالثرثرة وكثرة الكلام وتكرار الشيء الواحد آلاف المرات .

وعلى الرغم من أننا لم نزوّد بكفاية القدرة على فهم منطق الحيوان ، ذلك المنطق الذي يتألف من اشاراته وأصواته الشفوية ، فإن البحوث الحديثة قد هيأت لنا فرصة الوقوف على حقيقة المخلوقات التي تعايشنا فوق هذه الأرض ، فرفعنا بعض الحجب التي لا يزال كثير

منها يغشي عن مباحث التاريخ الطبيعي ، حتى بعد أن أفلح العلامة لينايوس ، بثاقب بصره وواسع علمه ، في أن يقفنا على العلاقات الأساسية التي تربط بين نواحي عالم الأحياء .

* * *

في سنة من أوائل سني القرن العشرين ، وجّه محرر إحدى الجرائد اليوميّة سؤالاً للسير «هربرت مكسويل» عضو المجمع الملكي البريطاني ليبيّن له اسم الكاتب الانجليزي الذي خلف أكبر الأثر في توجيه الفكر الإنساني في القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا السؤال مما يجاب عليه عفو الخاطر ، ولكن سير مكسويل تناول القلم وكتب بخير تردد اسم : « تشارلس روبرت داروين » .

قد يتفق ان يوجد من يأنف أن يُختصّ هذا الشرف على عالم مواليدي (طبيعي) دون مجموعة اللاهوتيين والمؤرخين والفلاسفة والاخلاقيين والشعراء وكتّاب المقالة والقصصيين الذين أنجبهم القرن التاسع عشر برمته ، ومنهم من خلّف آثاراً دمغ بها الفكر بطابع ثابت في الناحية التي عنيت فيها مواهبه . غير أن الواقع أنه لم يتح لواحد من هؤلاء أن يستوي على ما استوى عليه « داروين » من روح العناد والمناقشة عما أتى به من حقائق العلم الطبيعي في أي فرع من فروع المعرفة ، ولم ينتصر غيره في مجاله انتصاره في مجال ذلك العلم ، ولم يخلف غيره من بالغ الأثر ما خلّف من النتائج وأساليب البحث في ميادين النشاط العقلي .

ليس لنا أن نستطرد إلى الكلام في « داروين » وهل أمكنه أن يؤلف جميع حلقات التطور في عقد نظيم من الفكرات المسلسلة ، أو إنه عزى إلى نظرية الانتخاب الطبيعي من الأثر أكثر مما لها في حقيقة الأمر . فإن هذه الأشياء من شأنها أن تظل زمناً آخر مثاراً للمناقشة والخلاف . أما الذي أجمع عليه الناس فهو أن داروين إذ استجمع كل حقائق العلم والبحوث التي تقدمته واستوعبها وأنعم النظر فيها مؤيداً بعضها نابذاً البعض الآخر ، وإنه إذ أثبت صحة الكثير منها بملاحظات شخصية دقيقة ، وأضاف اليها نتائج القدرة البشرية في استيلاد الحيوانات الداجنة ، قد وفق الى رفع علم الأحياء في جملته وفي متجهه إلى ذلك المستوى الرفيع ، وأضفى على الحياة لوناً مثيراً للعجب ، باعثاً على الاجلال

والإكبار ، بل أنه أتلف بين ما كان متناثراً في العقل من صور الحياة وفي بعث الحياة موكباً حافلاً ، هو الآية الكبرى من آيات الخلق .

* * *

ولكن ذلك الموكب الذي حشد فيه « داروِن » كل صور الحياة ، لموكب دموي ، آيته الموت والقتل والفناء ، ليبقى في النهاية من الاحياء ما هو جدير بالحياة ، سُنّة الانتخاب الطبيعي والتّشاحُر على الحياة وبقاء الأصلح . ولكن ذلك الجلي لم يرض قلوب الكثيرين ممن كانوا يرون أن الحياة روض ، والأمل زهرة ، والإنسان في الدنيا عابر سبيل ، كما يقول « أولفر جولد سميث » ، وحزّ في نفوسهم أن يصبح ذلك الروض الذي تخيله الشعراء وذلك الأمل الذي غنّاه الفلاسفة ، إنما هو ميدان معركة دائمة يفوز فيها الأقوى والأصلح والأصبر على مكاره الحياة ، لينقل إلى أخلافه الصفات التي جعلته يتفوّق في المعركة التي اجتازها عن جدارة واستحقاق .

والواقع أن هذه المعركة قائمة في جميع طبقات الاحياء من أدناها الى أرقاها ، بين الحيوان والنبات ، وبين النبات والحيوان ، وبين الحيوان والحيوان ، وبين النبات والنبات . ولكن ما هو السبب في ذلك ؟ سببه في الحقيقة أن المبدأ الذي تقوم عليه الحياة واحد هو الخلية الحية ، هو بعينه في الحيوان كما هو في النبات .

لا يدافع الحي عن حياته تلقاء أحياء أخرى ، أو يكافح عنها إزاء الطبيعة وأعاصيرها العاتية فحسب ، بل يدافع عنها إزاء الحر والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك . فقد كان من حظ العلم أن يصل بأدواته وجهازاته المبتكرة الى حقائق خفيت عن الناس القرون تلو القرون . فقد كشف الاحيائيون عن أحياء في أماكن وبقاع لم يحلم أحد بأن الحياة تستطيع البقاء فيها .

فقد صحب سير « أرنست شكلتون » في رحلته الى القطب الجنوبي عالم أحيائي هو مستر « جيمس موري » . فحفر هذا العالم حرّة الى عمق خمسة عشر قدماً في بركة جمد ماؤها وأخرجها فاذا بها تعج بحييوينات تعرف باسم الحييوينات الدوارة ، وأخرى تعرف باسم دبة الماء أو المقريرط .

ظلت هذه البركة عامين في خلال وجود البعثة متجمدة الماء . وربما كانت قد ظلت كذلك سنين كثيرة قبل ورود البعثة الى تلك الاصقاع النائية ، وربما كانت قد ظلت قروناً على تلك الحال ، بقيت في خلالها هذه الحيبوينات في حالة اندفان ، وفي محيط نزلت درجة حرارته الى أربعين درجة فارنهيت تحت الصفر . لا يلوح في مثل هذه البيئة أي مظهر من مظاهر الحياة على هذه الكائنات . إن حياتها ترتد الى كمون .

ولكن لم يلبث العالم الاحيائي أن يضع هذه الحيبوينات في محيط مائي ملائم الحرارة ، ويعرضها للضوء ، حتى أخذت هذه الدوارات وغيرها مما خرج في الجرَّة في الحركة والسعي وراء الرزق والعمل على إخلاف النسل ، إما باخراج البيض ، وإما بالتوالد . على أنك لا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن هذه الأحياء ليست سوى حيبوينات مجهرية (مكروسكوبية) تكشفها لأبصارنا قوى المجاهر وحدها ، وانها فوق ذلك من أوالي الركب في موكب الحياة .

ولعلنا فيما يلي نوفق الى الانتقال بك الى منظر آخر من مناظر ذلك الحفل العظيم .

* * *

٢ – اللصوصية في موكب الحياة

الجرذان لصوص مدربة

لا أريد أن أثقل على القارىء بذكر العلماء ، وقد أسرفت بعض الشيء في ذكر « دارون » ومنزلته ، فآثرت أن أجعل في هذه البحوث من المراوحة بين الطعوم ، ما لا يشق على الذوق أن يألفه . على أني إذا كنت قد أسرفت بعض الشيء في الكلام عن « دارون ونظرياته » ، فإنما كان ذلك عن حاجة لأظهر أن هذا العالم قد كشف عن أن للحياة موكباً يسير ، وقانوناً تضرب في سهول الحياة ، وأن الحياة بما فيها من مختلف الصور هي عند الحقيقة وحدة لا تتجزأ ، وأنها تبث في الأحياء من الصفات والطباع ما يشترك في غايته ، وإن اختلف في أسلوبه ووسيلته .

* * *

لقد خصَّ الفيلسوف بيدبا الجرذ بالكثير من عناية الذكر في كتابه « كليلة ودمنة »

فأبان عن ما فيه من صفات حميدة وما فيه من حرص ، وما اختص به من دهاء . ففي كثير من فصوله المتعة كان الجرذ صديقاً وفياً ، أو ناصحاً أميناً ، أو أريباً حذراً ، أو مفكراً منطيقاً. بل إنه في باب الجرذ والسنور جعله المكافح المنافح في الحياة ، العالم بطرق الجهاد والجلاد ، المحتال على العيش ، الساعي إلى الرزق ، العامل على المنافسة في دنيا الأحياء . ولكن هذا الفيلسوف على كثرة ما ذكر الجرذ فإنه لم يتخذ منه غير رمز يرمز به إلى حياة الإنسان ، ومثل يضرب عن ما ينبغي للإنسان أن يدأب عليه ، وما لا ينبغي له أن يسعى إليه من أحوال العيش . معنى هذا أنه لم يبحثه بحث العالم ، بل بحثه بحث الفيلسوف المتأمل . ولعلني لا أكون مخطئاً إذا قلت إن أول من بحث الجرذ بحثاً علمياً كان الطبيب العالم ابن بختيشوع في كتابه « منافع الحيوان » .

ولا أعرف على وجه التحقيق إن كان في المكتبة العربية نسخة من هذا الكتاب ، وإنما اطلاعي كان على مخطوط فارسي مصوَّر ، نقشت فيه رسوم منها رسم يبين كيف تنقل الجرذان بيض الطيور ، وكيف تفتن في نقله حتى يصل إلى جحورها سليماً . ولا شك في أن الرسم الذي يبين هذه الحقيقة في هذا الكتاب هو أقدم صورة عرفت في تاريخ علم الحيوان . جاء في ذلك الكتاب ما ترجمته :

« يستلقي أحد الجرذين على ظهره ممسكاً البيضة بين أطرافه الأربع (قدميه ورجليه) من فوق بطنه ، في حين يجره الجرذ الآخر من ذنبه ميمماً نحو الجحر » .

ومن هذا الكتاب نسخة فارسية مصورة محفوظة في مكتبة « بيرمونت مورجان » فيها أن الفراغ من كتابتها كان في سنة ٦٩٠ هجرية في مدينة فرغانة ، أي أنها كتبت في العصر المغولي .

* * *

ولقد حقق العلم الحديث تلك الرواية بعد أن ظلت معتبرة من الأساطير زماناً منذ أن نشر الكاتب الفرنسي المعروف لافونتين كتابه المشهور ، ولا سيما قصته المعروفة بعنوان : « الجرذان والثعلب والبيضة » .

Les Deux Rats, le Renard, et l'Oeuf. (No CLXXXIX Fables).

ولكن هذا لم يصبح الآن خرافة بل حقيقة أيدتها المشاهدات وعني بدرسها العلماء ،

ومن المؤلفات التي يعتمد عليها حتى الآن مؤلف العالم الانجليزي « جيمس رودويل » . « الجرذ : تاريخه وصفاته الهدمية » :

« The Rat : Its History and Destructive character by James Rodwell : 1858

ولقد عقب على هذا الكاتب غيره من الباحثين منهم العلامة المراليدي « توم سبيدي » الذي يروي القصة التالية :

دخلنا مسرعين إلى حظيرة اعتاد الدجاج أن تنتي بيضها فيها ؟ فرأينا في ناحية منها جرذاً كبيراً يحمل بيضة من المذود متجهاً بها إلى جحر في ناحية منه ، فكان يحتضنها بإحدى يديه دائماً بأطرافه الثلاثة الأخرى بحرص وعناية حتى لا تتكسر . فلما شعر بنا ألقاها ولاذ بالفرار » .

ومما روي أيضاً أن جرذين قد يستطيعان نقل بيضة من فوق سلّم ذي درجات الى حيث يريدان . قال الأستاذ « رودويل » :

لاحظ صاحب معمل للحلوى أن البيض يسرق بطريقة لم يتبينها ، فأخذ يراقب الأمر حتى إذا كان ذات يوم بصر بجرذين ذكر كبير وأنثى أصغر منه حجماً على درجة من درجات السلم وبينهما بيضة ينقلانها بحرص وتؤدة ، فنزل الجرذ الكبير درجة من السلم ووقف على رجليه مادًّا يديه فوق الدرجة العليا ، وأخذ الجرذ الآخر يدحرج البيضة بهوادة حتى كانت عند يديه فأمسك بها محتضناً إيّاها بعناية ثم انحنى بها حتى وضعها على الدرجة ، وتريث حتى هبط إليه الجرذ الآخر وتسلمها منه ، ثم نزل الجرذ الأول درجة أخرى ، وتلقاها كما فعل أولاً ، وما زالا يهبطان حتى بلغا نهاية الدرج .

ألا نجد في هذا عذراً لأولئك الذين قالوا « إن الحيوان إن امتنع عليه الكلام ، فإن الطبيعة قد عوّضته عنه بقدر من العقل ، وقسط من الحيلة ، تسلّح بهما في معركة الحياة ؟ ألسنا نجد في هذا وأمثاله عذراً لأولئك الذين أنطقوا الطير وألهموا الحيوان في قصصهم الرائع وحكمهم الباقية .

اسماعيل مظهر